

العناية للزواج ، الرغبة الحائلة في صياغة عالم ملون ومزخرف ، الفدائيون و« الوعد » الفلسطيني الجديد .

الأطفال والهرب : عندما بدأ أطفال البقعة يرسمون هذه الرسوم كان قد مر على حرب حزيران خمسة عشر شهرا ، وعلى معركة الكرامة خمسة شهور . غير أن العمليات العسكرية لم تتوقف منذ ذلك الحين . وقد بدأ واضحا من الرسوم ان موضوع الحرب يسيطر على الأطفال بصورة اجبالية ، وهو أمر لا يفسح المجال الا لتفسير واحد ، وهو خضوعهم جميعا لمائة الحرب ، على نحو متعب وملح ، جعلهم على هذا القدر من الحساسية تجاهها ، وصيغ رؤيتهم للأشياء بمنظار المأساة التي عاشوها . فمن الظواهر الملحوظة في رسوم أطفال النازحين ، ظاهرة التضخم الانفعالي ، و بروز نفسية جماعية على قدر كبير من الحساسية والارهاق تجاه ظروف الحرب الأخيرة . ان سيطرة الرؤيا المتشائمة ، الحذرة والمتوجسة من العدوان الذي ينطوي عليه العالم ، ليست مجرد ظاهرة جانبية ، وانما هي لمحة الحاحا حادا ، حيث يعبر عن ذلك « التضاد » بين موضوعات الرسوم الواحدة . ان هذا التضاد يشكل بنية مأساوية وجدت مداها الطبيعي في نطاق هذه الرسوم (وردة مورقة ، وطائرة معادية تعلوها ، خيمة منفردة كعصفور منكش على نفسه وطائرة حربية تطلق من فوقها ، سيارة اتوبيس وطائرة معادية تسقط فتابلها حولها) ثم رسوم أخرى منقوشة بالمتناقضات التي لا يستقيم فهمها الا ضمن الاطار الموضوعي لمعاناة هؤلاء الأطفال ، رسوم تجد بها مقسما للسيارات والبيوت والاشجار والطائرات والاسلحة والرايات وثمار التفاح منزوية او مبعثرة في انحاء الورقة . صورة اخرى لمجموعة من النساء ، احدهن تحمل طفلها ثم طائرات تلقي بكرات مدمرة حولهن . ان معظم الأطفال يجسدون المقولة الدارجة لمآسائهم المعاشة ، فما من شيء يمكن ان يبقى ساكنا سالما ، كلما وجد بيت مظلل بخضرة الشجر (التي يحسن الأطفال زخرفتها) كان لا بد من طائرة تطلق وترمي شيئا من اسلحتها المدمرة ، والتي يعرفها الأطفال من تجربة محسوسة او سمعوا عنها مرارا .

لقد أصبح احساسهم بالعدوان وبالخطر مرهقا الى حد كبير ، كما أصبحت قدرتهم على التعبير من

هذا الحس منذرة بتشاؤم مطبوع اثر الحرب ، فرسومهم قادرة على اعطاء هذه الاشكال بصورة اكثر ايجازا وتعبيرا من بقية الأطفال ، لسبب بسيط هو انهم قد خبروها اكثر من غيرهم . ان الطائرات التي تتخذ شكل الخفافيش المربعة ، الهليكوبتر السوداء ذات الشكل الانتعاشي المتوحش ، السماء المظلمة المنيئة بأعنى الشرور ، كأنها شبكة عنكبوت ضخمة ، والبيوت المتوحدة التي توهي بالصائم الوادعة ، كل هذه « الاشكال » كانت حصيلية تكيفهم النفسي مع الحرب ، وحصيلية رؤيتهم الذاتية لاشكال تتضمن مواقف عدائية ، وأخرى تعبر عن مواقف محسوسة من الاشكال الاول ، فيجري تعاملهم مع هذه الاشكال ، وكأنها كائنات حية واعية ، فلا غرابة ان نلمس في تعاملهم مع « اشكال » الطائرات — التي يفترض انها مثيرة لخيال الأطفال ، ومدعاة لاسترسال حسهم الجمالي ، ولحبههم وتوقهم للتطبيق — موقفا عدائيا من الناحية التشكيلية ، حيث تبدو كأجسام شيطانية شريرة ، وهم بذلك ينسجمون مع ادراكهم الموضوعي للدور الذي لعبته الطائرات في القتل والدمار والتشرد الذي الحق بهم .

وكما بدأ ، فان أطفال المخيم قد خاضوا تجارب مبكرة جدا وقاسية جدا بما لا يتناسب مع سنهم الغضة ، فجميعهم قد عانوا من حرب حزيران بشكل او بآخر ، فظهرت في اعمالهم تذكرات عن نزول الهليكوبتر في الكرامة ، المشاهدة العيانية لسقوط طائرة ، المسير ضمن قوافل النزوح ، الكمون في المغارات والكهوف خوفا من النابالم ، رسوم اشبه « بالخرائط » تروي قصة الخروج من الأرض — الوطن ، وتذكرات مرعبة من الموت والاحشاء البارزة ، وتيه الصغار والعطش وحرق العريات على جنبات الطريق .. الخ.

على ان هذه الرسوم لا تكفي بالتجسيد الساكن لما حدث ، اي انهم ليسوا رواة محايدين . اذ نجد انهم غالبا ما يخرجون من نطاق السرد والوصف للمعاناة والمعاشاة والذكرى الى نطاق اعطاء المواقف والامنيات ، والتدخل « الصريح » ضمن وسائلهم الخاصة ، فيسخرن قدرتهم السحرية في اصطياد جنود الاعداء بأساليب مناسبة ، ويكرسونها لصالح الرمز الجديد للانتصار ، للفدائي الذي بدأ وكأنه معادل موضوعي في هذا الصراع الراجع منذ أمد بعيد لصالح العدو .